العرفان الحي والفاعل عند الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ -دراسة في خصائص الطرح العرفاني-

الشيخ رضا رمضاني⁽¹⁾

خلاصة المقالة:

يحضر العرفان بعمق - طريقةً ومنهجًا - في حياة الإنسان، ويرتبط بنشأته الروحية ارتباطاً شديداً. وقد اختلفت الآراء فيه على اتجاهات ثلاثة؛ بين رفضه مطلقاً، وبين قبوله مطلقاً مع عدم الاعتراف بالطرق الأخرى، وبين قبوله بشروط؛ منها الاهتمام بالظاهر إلى جانب الباطن.

ويُعدّ الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ من القائلين بالاتجاه الأخير، حيث يخالف المنهج الذي يفصل بين الظاهر والباطن، ويلغي دور الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبالتالي يبعدهم عن دورهم الحقيقي في هذا العالم. بل كان الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ يرى أنّ الهدف الأساس لحضور الأنبياء الإلهيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هذا العالم - وهو غاية العرفان النظري - هو: معرفة الله، وإرشاد الناس إلى طريق معرفته - تعالى -؛ كما أنّه يرى أنّ الاتصال ببحر الألوهية - وهو غاية العرفان العملي - نتيجةً عمليةً لدعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحضورهم.

وتتناول هذه المقالة العرفان عند الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ؛ مبيّنةً مفهومه الخاص للعرفان، والخصائص المميزة لطرحه العرفاني؛ كتتمسكه بولاية الإنسان الكامل، وتوسّله بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، واهتمامه بالقرآن الصاعد، وجمعه بين الشريعة والطريقة،

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من إيران.

وتحقّقه بالأسفار الأربعة، وعدم تقيّده بمنازل العرفاء، ونزوعه في عرفانه نحو المجتمع، وربطه العرفان بالسياسة وبالجهاد، ومواجهته العرفان الكاذب، ونظره إلى العرفان بوصفه أداة لا هدفاً.

لقد أحيا الإمام الخميني قُدِّسَ سَمِيُّهُ العرفان الإسلاميّ الأصيل، وجذب قلوب كثيرين نحو الحقيقة بعرضه لعرفانٍ خالصٍ صافٍ، فرّبى من خلال هذا العرفان رجالاً ونساءً كانوا مستعدّين للتضحية بجميع ما يملكون، ومجتمعنا البشريّ اليوم هو أحوج ما يكون إلى هذا العرفان الأصيل.

كلمات مفتاحية:

العرفان، الإمام الخميني، مدرسة أهل البيت عليه السلام، المقامات، المنازل، السير والسلوك، الشريعة، العبادات، العلم، السياسة، الجهاد.

مقدمة:

إنّ ظاهرة العرفان وواقعها مرتبطان أشدّ الارتباط بعمق حضور الإنسان في النشأة الروحيّة. فمنذ أن اتّجهت الأنظار نحو العرفان؛ بوصفه طريقةً ومنهجاً، اختلفت الآراء حوله بين الرفض والقبول، والنقض والإبرام عند المفكرين، فهناك الذين رأوا أنّ نجاة البشر تنحصر في هذا الطريق فحسب، وفسّروا جميع الأمور تفسيراً باطنياً، تاركين الظواهر من دون أن يعيروها أدنى اهتمام. وهناك الذين وقفوا في وجه الفريق الأوّل، فخالفوا العرفان بشدّة، معتبرين إيّاه أكبر أسباب الانحراف والتحريف في الدين. وهناك الذين ساروا في طريق الاعتدال، فاعتبروا الاهتمام بالظواهر والبواطن من ضروريّات الحياة الإنسانيّة، على أنّ الاهتمام بالظاهر يجب ألاّ يؤدّي إلى إغفال البعد الباطنيّ ومنع الشخص من التعمّق في باطن الدين، كما يجب ألاّ يؤدّي الاهتمام بالمعنى والباطن إلى ترك الظواهر وعدم الاهتمام بها. يقول أبو السراج الطوسي (ت: 378هـ-ق) في كتابه «اللمع» الذي يعتبر

من النصوص العرفانية القديمة: «سألني سائل عن البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، وزعم أن الناس اختلفوا في ذلك: فمنهم من يغلو في تفضيله ورفعته فوق مرتبته، ومنهم من يُخرجه عن حدّ المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضربٌ من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ولبس الصوف والتكلم في تنوّق الكلام واللباس وغير ذلك، ومنهم من يُسرف في الطعن وقُبْح المقال فيهم حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة»⁽¹⁾.

وإذا ما ألقينا نظرة على مجموعة البحوث والمواضيع العرفانية التي دوّنها الإمام الخميني قدس سره وكتبها، يتضح جلياً لنا أنه كان يخالف ذلك المنهج الذي يفصل بين الظاهر والباطن، ويلغي دور الأنبياء عليهم السلام، وبالتالي يبعدهم عن دورهم الحقيقي في هذا العالم؛ بل كان الإمام قدس سره يرى أن الهدف الأساس لحضور الأنبياء الإلهيين عليهم السلام في هذا العالم، أو ما يعبر عنه بـ«غاية العرفان النظري»؛ هو: معرفة الله، وإرشاد الناس إلى طريق معرفته -تعالى-: «إن غاية الأنبياء عليهم السلام الأساس هي العودة إلى كلمة واحدة: ألا وهي: معرفة الله»⁽²⁾.

كما إنه قدس سره كان يرى أن الاتصال ببحر الألوهيّة الذي يُعدّ غاية العرفان العملي؛ هو نتيجة عملية لدعوة الأنبياء عليهم السلام وحضورهم؛ حيث يقول: «إن ما كان يرمي إليه الأنبياء عليهم السلام هو أن يجعلوا جميع الأمور إلهية، وأن يجعلوا جميع أبعاد العالم وجميع أبعاد الإنسان الذي هو عصاره الكائنات إلهية»⁽³⁾. لقد أدخل الإمام الخميني قدس سره عرفاناً سامياً في المجتمع من خلال سلوكه المفعم بالتفكير في منازل العارفين والسير في طريق العرفان النظري والعملي، وجعله أساساً للنظام السياسي للإسلام.

(1) السراج الطوسي، أبو نصر: اللمع، تحقيق وتقديم وتخريج أحاديث: عبد الحليم محمود؛ طه عبد الباقي سرور، لا ط، مصر، دار الكتب الحديثة؛ بغداد، مكتبة المثنى، 1380 هـ/ق. 1960 م، ص 21.

(2) الخميني، روح الله: الكلمات القصار (المواعظ والحكم)، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام قدس سره، 1373 هـ، ص 17.

(3) م. ن، ص 22.

وتأتي هذه المقالة لبيان خصائص الطرح العرفاني عند الإمام الخميني قَدْرَسَنَهُ من خلال دراسة تحليلية لنماذج من كلماته في هذا المجال.

أولاً: مفهوم العرفان عند الإمام الخميني قَدْرَسَنَهُ:

لقد وردت تحديدات عدّة للعرفان عند العرفاء، ويعود تنوعها إلى تنوع حالات العارفين ومقاماتهم في الأغلب؛ ففي كل تعريف يتم بيان بُعد من أبعاد هذه الحالات.

يقول الإمام الخميني قَدْرَسَنَهُ معرفاً بالعرفان: «إنّ العرفان عبارة عن معرفة الله وشؤونه الذاتية وتجليات أسمائه وأفعاله في الحضرة العلمية والغيبة بمشاهدة حضورية؛ كما أنّ العرفان هو وجود العلم الحضورى بكيفيته الصفاتية، وكذلك الاتصالات نتاجها الإلهية في الحضرات الأسمائية والأعيانية»⁽¹⁾.

ويقول في مورد آخر: «العرفان هو العلم بكمال الجلاء وكمال الاستجلاء؛ وكمال الجلاء هو ظهور الحقّ في المرآة الأتمّ، وكمال الاستجلاء هو شهود الحقّ نفسه في تلك المرآة»⁽²⁾.

ويرى الإمام قَدْرَسَنَهُ أنّ الوصول إلى هذا النوع من المعرفة لا يمكن أن يحصل بواسطة العلم الحسولي؛ لأنّ ثمة في هذا العلم جهةً غيريةً وكثرةً وكثرة العلم والعالم والمعلوم ممّا لا ينسجم مع روح التوحيد العرفانيّ. هذا مضافاً إلى أنّه يجب في العلم الحسوليّ أن يكون لدى العالم تصوّر عن المعلوم، فتصوّر المعلوم من ميّزات العلم الحسوليّ، في حين أنّه لا يمكن أن يحصل لأحد تصوّر عن الله تعالى.

وعليه، فإنّ طريق المعرفة لدى العارف محصور بالمعرفة الحضورية

(1) الخميني، روح الله: تعليقات على شرح فصوص الحكم ومصباح الأنس، ط1، قم المقدّسة، مؤسسة باسدار اسلام، 1406هـ-ق، ص55.

(2) وقد فسّر (كمال الاستجلاء) في موضع آخر؛ بقوله: «فظهر الحقّ في المرآة الأتمّ كمال الجلاء وشهود نفسه في تلك المرآة. (انظر: م.ن، ص252).

والشهودية، وهي ما لا يمكن حصوله للإنسان إلا من خلال تجلي الحق تعالى، وكل إنسان يستطيع أن يحظى بهذه المعرفة على أساس تجلي الحق وإفاضته على الإنسان، مع العلم أن اكتناه الذات لن يتأتى لأحد؛ كما يقول مولى الموحدين والعارفين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الحمد لله الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن»⁽¹⁾.

يقول الإمام الخميني قده في هذا الصدد: «لا يمكن للفكر الحسولي والعلم الحسولي أن يقدم تعريفًا للوجود؛ لأن الفكر عبارة عن ترتيب أمور للتوصل إلى أمور أخرى. لذلك، فإن الفكر يرتبط بعالم الكثرة والغيرية. وليس له طريق في باب التوحيد وعالم اللاكثرة، ولكن العلم الشهودي والمعرفة الحسورية يسببان الوحدة، على خلاف العلم الحسولي الذي من ميزات إيجاد الكثرة، ومعياره الهوية ونفي الغيرية والثنائية وزوال التعينات كلها»⁽²⁾.

فالإمام الخميني قده يعتقد أن الطريق الوحيد لبلوغ كمال المعرفة الإلهية هو العلم الحسوري الذي يعد نوعًا من تجلي الظاهر في المظهر. حيث يمكن من خلال فناء المظهر في الظاهر والاستفادة من تجليه. فقلب الإنسان الكامل هو -في الحقيقة- وعاء لتجليات الحق تعالى. والسالك الحقيقي عندما يبلغ في سيره العرفاني مقامًا لا يرى فيه عمله، فإنه في هذه الحالة سيتمتع بتجلي الحق الأفعالي، ومن ثم سيتجاوز حجاب الأفعال؛ ليتجلى الحق -تعالى- على قلبه بأسمائه الصفاتية، وفي هذه الحالة سيكون مصدر إخباره عن أسماء الله الصفاتية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽³⁾، وعندما يجتاز هذه المرحلة سيصل إلى مرحلة الفناء وما فوقها، وذلك من خلال

(1) العلوي، محمد (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: جعفر الشهيد، ط2، طهران، انتشارات آموزش انقلاب اسلامي، 1370هـ.ش، الخطبة الأولى، ص2.

(2) الخميني، تعليقات على شرح فصوص الحكم ومصباح الأنس، م.س، ص273؛ وانظر له -أيضًا- آداب الصلاة، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام، 1378هـ.ش، ص284؛ الأربعون حديثًا، طهران، مركز رجاء الثقافي، 1368هـ.ش، ص525.

(3) سورة البقرة، الآية 31.

تجلّي الحقّ له بأسمائه الذاتية. ومن الطبيعيّ أن يتفاوت سلوك العارفين ويختلف من عارفٍ إلى آخرٍ لناحية الشدّة والضعف، ولكنّ يبقى الفناء دائماً أحد أهمّ قضايا العرفان الإسلاميّ. والعارف الذي يجد طريقه إلى منزل الحبيب بهذا الشكل، فسوف يفوز بمحبّته عزّ وجلّ؛ كما يقول مولوي:

إِنَّ أَيَّ شَخْصٍ مَا لَمْ يَفِن
فإنّه لن يجد الطريق نحو عرش الكبرياء
رغم أنّ هذا الوصال هو البقاء في الفناء
إلاّ أنّه في البداية فناء في البقاء
ما هو الفلك الدوّار؟ إنّهُ هو هذا الفناء
ليس للعشّاق دين أو مذهب
إنّ الفناء سيخلقك يا سالك الطريق
لا بدّ لك من الفناء حتّى تجد الحياة من الله
ويقول في موضع آخر:

ما دمت ظاهراً فإنّ الله مخفيّ
عليك أن تخفى حتّى يظهر الحقّ جليّاً
فإذا ما سقط القناع عن جماله
ستشرق الشمس من وراء كلّ ذرّة
وعندما تحصل للسالك هذه المعارف؛ فإنّه يشاهد في كلّ مكان قدرة
الله وعظّمته وإرادته وعلمه.

ثانياً: خصائص الطرح العرفانيّ عند الإمام الخمينيّ قدس سرّه:

يُعدّ الإمام الخمينيّ قدس سرّه من العرفاء الذين استطاعوا أن يفتحوا أبواباً واسعة في وجه المتديّنين والملتزمين بالدين من خلال حضوره الإلهيّ وتجليّاته، وأنّ يضيفوا على حياة البشر معاني جديدة من خلال نظرتهم الشاملة في جميع الشؤون والأبعاد. لقد أظهر الإمام قدس سرّه الحقائق

الكامنة في وجود جميع البشر، وأعطى للمعتقدات الفاعلة في المجالات الإنسانية حياة جديدة. فلم يكن من العرفاء الذين يعتبرون أن الحضور الفاعل لإصلاح المجتمع وتغيير شؤونه لا يناسب مقامهم ومنزلتهم، وأنه ينافي السلوك العرفاني ويناقضه؛ بل كان يرى أن هذا الحضور في المجتمع ضروري؛ لإكمال المقامات العرفانية، التي لا ينكر أحد أنه لا يمكن أن تحصل من دون التأييد والتوفيق الإلهي. ومن هنا، ندخل لنلقي الضوء على أهم خصائص الطرح العرفاني عند الإمام الخميني قده؛ لتتضح لنا حيوية عرفانه وفاعليته.

1. التمسك بولاية الإنسان الكامل:

لقد جعل الله - سبحانه - مقام «الولاية المطلقة» ومقام «الإنسان الكامل» واسطة فيضه وإفاضته. فعبره ينزل الله - تعالى - فيضه وبركاته على جميع الكائنات وعلى البشر. ومن خلال واسطة الولاية المطلقة يستطيع الإنسان وجميع الكائنات العروج إلى الله تعالى. وبتعبير آخر: إن الإنسان الكامل الذي لديه مقام الولاية المطلقة السامي يقوم بالوساطة؛ سواء في قوس النزول، أو في قوس الصعود؛ لأنه حامل الولاية المطلقة، وخليفة الله الأعظم، ومسجود ملائكة الله. وهو في الحقيقة مخلوق الله الأول، الذي يعبر عنه في العرفان بالقلم الأعلى، أو العقل الأول، أو الروح الأعظم.

وفي المنهج العرفاني يعتبر التمسك بالأولياء الإلهيين الكاملين من الضروريّات في السير والسلوك العرفاني. فمن خلال الولي المطلق تتم جميع مراحل السلوك العلميّة والعملية، الذي يحظى السالك بواسطته بالعناية الإلهية الخاصة، وهذه الولاية تعتبر من أهم أركان السير والسلوك المعنوي. روي عن الإمام أبي جعفر ع قوله: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ؛ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ»⁽¹⁾.

(1) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط4، طهران، دار الكتب الإسلامية؛ مطبعة حيدري، 1365هـ.ش، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، ح1، ص18.

وقد ذكر الإمام عنه السلام في كتابه الآداب المعنوية للصلاة دقائق لطيفة عن معنى الولاية، يقول فيه: «حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الألوهية؛ وذلك هو أصل الوجود وكماله؛ فكلُّ موجود له حظٌّ من الوجود، يتمتع بحظٍّ من حقيقة الألوهية وظهورها المتمثل في حقيقة الخلافة والولاية. واللطفة الإلهية المتمثلة في أنّ حقيقة الوجود المنبسط ونفس الرحمن والحقّ المخلوق به، الذي هو بعينه باطن الخلافة الخاتمة والولاية العلوية المطلقة قدرٌ منقوش على ناحية الكائنات جميعاً؛ بدءاً ممّا يوجد منها في عوالم الغيب؛ وانتهاءً إلى ما هو موجود منها في عالم الشهادة. ومن هنا، كان الشيخ العارف الشاه آبادي عنه السلام يقول: «إنّ الشهادة بالرسالة تنطوي على الشهادة بالولاية؛ لأنّ الولاية هي باطن الرسالة. وأقول: إنّ كلتا الشهادتين بالرسالة والولاية منطويتان في الشهادة بالألوهية، وإنّ الشهادة بالرسالة تنطوي على الشهادتين بالألوهية والولاية؛ كما إنّ الشهادة بالولاية تنطوي على الشهادتين الأخريين»⁽¹⁾.

فبالنظر إلى الحضور العلمي والعينيّ للسادة المعصومين الذين هم حملة الولاية المطلقة الحقيقيّون، يرى الإمام عنه السلام أنّ التمسك بهم في السلوك العلميّ والعملّي من الأمور الضروريّة واللازمة. وهو عنه السلام يعتبر من العرفاء القليلين الذين علّقوا معرفة الطريق الصحيح بشكل كامل على معرفة المصداق الكامل للخليفة الإلهيّ الأعظم في الأرض، الذي يتبلور في هذا العصر بوجود إمام الزمان المقدّس عليه السلام؛ وهو الإمام الثاني عشر لأئمة أهل البيت عليهم السلام. وقد قام الإمام عنه السلام بالسير في الطريق على ذلك الأساس، وكان متّجهاً نحو هذا المصدر الأصليّ للفيض في جميع مراحل سلوكه، وهذا ما يفهم من كلمات هذا العارف الجليل⁽²⁾.

(1) الخميني، آداب الصلاة، م.س، ص141.

(2) انظر: سيماي معصومين في فكر الإمام الخميني، تبيان الدفتر الثاني عشر، طهران مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام، 1378هـ.ش.

2. الارتباط بأهل البيت عليهم السلام:

بالنظر إلى ما تقدّم من التمسك بمقام الولاية، فإنّ الارتباط بأصحاب ذلك المقام الرفيع سيكون ضرورياً لإدراك الفيض في السلوك العملي؛ لأنّ العارف لن يبلغ الغاية دون مصدر الفيض؛ سواء في المعرفة الحضورية أم في العبادات العملية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «بنا عرف الله، وبنا عبد الله، ولولانا ما عرف الله وما عبد الله»⁽¹⁾.

إنّ السالك المجذوب أو المجذوب السالك يجب أن يستعين بالأسماء الإلهية حتى يبلغ المقام المعنوي المتعلق بكلّ اسم؛ لارتباط كلّ اسم من الأسماء الإلهية بمظاهر تلك الأسماء ومصادرها. والأئمة المعصومين عليهم السلام الذين هم معادن الكلمات الإلهية وأركان التوحيد الإلهي والمظاهر التامة للأسماء الإلهية، يعتبرون واسطة الاستفادة من الرحمة الرحيمية والرحمانية لله -تعالى- في قوس الصعود؛ كما كانوا عليهم السلام واسطة الفيض في قوس النزول.

ورد في دعاء شهر رجب: «فجعلتهم معادن لكلماتك، وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كلّ مكان، يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينها؛ إلاّ أنّهم عبادك وخلقك، فتقها ورتقها بيدك، بدوها منك، وعودها إليك»⁽²⁾.

ولذا؛ فإنّ معرفتهم ومحبتهم وطاعتهم جميعاً تُعدّ أمراً واجباً، وشرطاً ضرورياً للسلوك؛ لأنّ طاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية لله، كما إنّ حبّهم حبّ لله، والعداء لهم هو عداء لله ذي الجلال، كما ورد في الزيارة الجامعة: «من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن

(1) انظر: المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1403هـ، ج 26، ص 106-107، 247؛ ج 23، ص 102.

(2) الطوسي، محمد بن الحسن: مصباح المتهدّد، ط 1، بيروت، مؤسّسة فقه الشيعة، 1411هـ/ق/ 1991م، ص 803.

أحبكم فقد أحب الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله»⁽¹⁾.

إن الارتباط بالسادة المعصومين عليهم السلام لمعرفة الطريق، والوصول إلى الهدف الذي يُدعى اصطلاحاً؛ بالسير في قوس الصعود، من الأمور المسلّمة والضرورية عند العرفاء الأصيّلين؛ من أجل الوصول إلى مقام القرب الحقيقي من الله تعالى. وما إتمام النعمة الإلهية وإكمالها للذين وردا في الآية الشريفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾⁽²⁾؛ إلا من أجل تأكيد هذه الحقيقة. فقد أتمّ الله النعمة، وفتح سبل الهداية عبر هذه الولاية على الجميع، وخاصة على سالكي طريق الحق.

لقد كان الإمام الخميني قده من السّباقيين في مقام الارتباط بأهل البيت عليهم السلام. فقد كان حضوره في حرم أمير المؤمنين عليه السلام أيام وليالي إقامته في النجف الأشرف، وتوسّله الدائم به، ودموعه وحرقة على مصائب أهل البيت عليهم السلام - وخاصة مصائب سيّد العارفين أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وسيّدة الولاية فاطمة الزهراء عليها السلام - من أبرز تجليات حياة الإمام قده المعنوية. لقد كان يرى أنّ الاتّصال بهؤلاء السادة المعصومين عليهم السلام ضروري، وأنّ الانفصال عنهم يعني الانحراف والضلالة والهلاك.

3. الاهتمام بالقرآن الصاعد:

إنّ الأدعية المأثورة هي في حقيقة الأمر تشبه القرآن الصاعد، ولها دور عميق في بناء الإنسان وتكامله المعنوي. وعلى الرغم من اهتمام العرفان النظريّ اهتماماً بالغاً بالأوراد والأدعية؛ فإنّ كتباً عرفانية؛ مثل: فصوص الحكم، ومصباح الأنس، وتمهيد القواعد، وغيرها، قلّما نجد فيها توصيات بهذا الصدد.

(1) ابن بابويه، محمد بن علي (الصدوق): من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج2، ص613.

(2) سورة المائدة، الآية 3.

إنَّ الدخول في أجواء الدعاء والمناجاة مع الحبيب يتطلَّب الاهتمام بالأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام؛ إذ من الضروري تعلُّم أسلوب الحديث مع المحبوب من خلال أدعيتهم عليهم السلام؛ حيث بلغوا مقام الوصل والقرب الإلهي، فهؤلاء الكرام يعلمون الناس في هذه الأدعية كيفية الحديث وأدب الدعاء الموجَّه إلى المحبوب الحقيقي.

لقد تحدَّث الإمام الخميني قده في كتبه العرفانية؛ من قبيل: شرح دعاء السحر، وتعليقاته على كتاب فصوص الحكم، وكذلك في محاضراته المختلفة عن ضرورة الاهتمام بالدعاء، حيث يقول -على سبيل المثال:- «إنَّ هذه الأدعية تُخرج الإنسان من هذه الظلمات، وعندما يخرج من هذه الظلمة؛ فإنه يعمل لأجل الله. فقيامه لله، وهو يضرب بالسيف لأجل الله، ويقاوم لله. وليس معنى قراءة الأدعية إلا هذه الأمور»⁽¹⁾.

إنَّ نظرة كهذه إلى الدعاء ستكون نافعة جدًا إذا تغلغلت في جميع أبعاد الحياة الإنسانيَّة. ولذا، فإنَّ ثقافة الدعاء يجب أن تُعمَّم وتنتشر، حتَّى يستفيد المجتمع من بركاتها أكثر فأكثر.

يقول الإمام قده: «على كلِّ حال هناك دقائق في هذه الأدعية المباركة لا مثيل لها. انتبهوا إلى هذه القضايا، فهذه الأدعية يمكنها أن تحرك الإنسان. إنَّ هذه الأدعية المأثورة لشهر رجب المبارك، وخاصَّة في شهر شعبان المبارك؛ كلُّها مقدِّمة وزينة لقلب الإنسان، وهي تهَيِّئ الإنسان للضيافة؛ أي لضيافة الله»⁽²⁾.

لقد كان الإمام قده يعير اهتمامًا خاصًا بالمناجاة الشعبانيَّة المفعمة بالمعارف الإلهيَّة الموجهة للبشر. فهي تُعدُّ منبعًا لكثير من المعارف والحقائق الإلهيَّة، وكان قده يوصي دومًا بقراءتها والمواظبة عليها؛ لأنَّ مقام الفناء والتمتُّع بعظمة النور الإلهي، وهي من أسمى مراحل السير

(1) الخميني، الكلمات القصار، م.س، ص52.

(2) م.ن.

والسلوك الإلهي، تُعدّ من أهمّ نتائج هذه المناجاة العظيمة وبركاتها. وكان الإمام عنه السلام يستأنس كثيراً بهذه العبارة من الدعاء، ويوصي بها كثيراً: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك. إلهي! واجعلني ممّن ناديتَه فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيتَه سرّاً وعمل لك جهراً»⁽¹⁾. حيث يقول عنه السلام عن هذه المناجاة: «إنّ المناجاة الشعبانيّة من أكبر الأدعية وأعظم المعارف الإلهيّة وأكبر الأمور التي يمكن لمن كانوا أهلاً لها أن يستفيدوا منها على قدر إدراكهم»⁽²⁾.

4. الجمع بين الشريعة والطريقة:

يُعدّ الإمام الخميني عنه السلام من العرفاء الذين يرون أن الفصل بين الشريعة والطريقة سببٌ للهلاك. وكان لا يجيز إهمال ظواهر الشريعة حتّى نهاية السلوك التي هي الانفصال عن النشأة الدنيويّة. لقد كان الإمام عنه السلام فقيهاً صاحب رأي، ومفتياً أزال الحيرة عن أتباعه ومقلّديه، وأوضح لهم الطريق العمليّ للسير والسلوك العمليّ، وجعل عنوانه وقاعدته الأساس: الاهتمام بالواجبات الإلهيّة، والنوافل والمستحبّات، وترك المحرّمات والأعمال المكروهة.

يقول الإمام عنه السلام عن الاهتمام بالشريعة ودورها في الوصول إلى المنازل والمقامات العرفانيّة: «واعلم أنّه لا يمكن اجتياز طريق في المعارف الإلهيّة؛ إلّا إذا بدأه الإنسان من ظاهر الشريعة. وطالما لم يتأدّب الإنسان بأداب الشريعة الحقّة، فلا يتحقّق له شيء من الأخلاق الفاضلة على حقيقتها له، ولا يمكن أن يتجلّى نور المعرفة الإلهيّة في

(1) ابن طاووس، علي بن موسى: إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، ط1، مكتب الإعلام الإسلامي، 1416هـ، ج3، ص299.

(2) الخميني، الكلمات القصار، م.س، ص52.

قلبه، وينكشف عليه علم الباطن وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة وظهور أنوار المعارف في القلب؛ سيكون متأدباً بالآداب الظاهرة. ولذلك، فإن دعوة بعضهم إلى ترك الظاهر لأجل حصول علم الباطن أمر باطل، فهم يرون أن ظهور علم الباطن يغني الشخص عن الآداب الظاهرة؛ وهذا ناجم عن جهل القائل بمقامات العبادة ومدارج الإنسانية»⁽¹⁾.

وقد تناول الإمام قده في كتابيه «آداب الصلاة»، و«سر الصلاة» مبحث الشريعة والطريقة رابطاً بينهما، فأجرى حقيقة العرفان في أحكام الشريعة، حيث يقول: «إن خلاصة ما نصبو إليه في هذا الفصل هي أن للصلاة، بل لجميع العبادات، باطناً ولباً وحقيقة؛ مضافاً إلى هذه الصورة والقشرة والمجاز. إن ذلك واضح للعقل؛ وفي النقل شواهد كثيرة عليه»⁽²⁾.

الفقه والفلسفة والعرفان من وجهة نظر الإمام قده هي الأضلاع الثلاثة للهرم الواحد، ولا تتحقق الشمولية لفهم الدين إلا بها. وقلما نجد بين علماء السلف أشخاصاً مثل: العلامة المرحوم محمد حسين الغروي الأصفهاني الذي كان يلقب بفقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء. ولكن الإمام الراحل قده كان يتصدر هذه الحلقة؛ فقد كان جامعاً للمنقول والمعقول والمشهود، ويناسبه بحق لقب فقيه العرفاء وعارف الفقهاء.

لقد كان الإمام قده مرجعاً دينياً في منصب الإفتاء؛ منشغلاً باستخراج القضايا الظاهرية المرتبطة بالأعمال الدينية، وعارفاً ببيان الأبعاد المعنوية والباطنية للعبادات والأحكام الإلهية، التي تسمى بالمصطلح العرفاني «أسرار العبادات»، وهي في الواقع روح العبادة وباطنها، بحيث ترتبط في الحقيقة بروح الإنسان وباطنه، ويتم حشره يوم القيامة بهذا الباطن.

وبمعنى آخر: لقد كان الإمام قده فقيهاً إلهياً يبين في رسالته العملية كيفية العمل بظواهر الأحكام؛ بوصفه شرطاً أساساً في السلوك العرفاني؛

(1) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص.8.

(2) الخميني، روح الله: سر الصلاة، طهران، انتشارات بياض آزادي، 1360 هـ.ش، ص.7.

كما كان يبين آداب الأحكام الشرعية وباطنها؛ بوصفه عالماً أخلاقياً متخلّقاً بالأخلاق الإلهية في مؤلفات؛ مثل: آداب الصلاة، وشرح دعاء السحر. ومن جهة أخرى -أيضاً- كان يهتمّ، بوصفه عارفاً، بأسرار العبادات؛ كالصلاة -مثلاً-؛ لما لها من دور عميق في بناء شخصيّة الإنسان المعنويّة، فيذكر كلّ ما يتعلّق بسرّ العبادات وروحها في مباحث عميقة.

5. سالك الأسفار الأربعة:

يتحدّث العارفون في سلوكهم عن مسؤوليتين كبيرتين؛ إحداها تعود إلى الشخص نفسه، والثانية تعود إلى المجتمع. ومن هنا، يطرحون موضوع الأسفار الأربعة.

لقد ذكر الإمام قُدِّسَ سَمِيُّهُ هذه الأسفار بشكل عميق في نهاية كتابه «مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية»؛ حيث يقول: «وليُعلم أنّ هذه «الأسفار الأربعة» لا بدّ من أن تكون لكلّ مشرّع مرسل؛ ولكنّ المراتب مع ذلك متفاوتة، والمقامات متخالفة؛ فإنّ بعض الأنبياء والمرسلين من مظاهر اسم «الرحمن» مثلاً. ففي السفر الأوّل يشاهد اسم «الرحمن» ظاهراً في العالم؛ وينتهي سفره الثاني باستهلاك الأشياء في الاسم «الرحمن»، ويرجع بالرحمة والوجود الرحمانيّ إلى العالم؛ فتكون دورة نبوّته محدودة. وكذلك مظاهر سائر الأسماء، حسب الاختلافات التي هي من حضرة العلم؛ حتّى ينتهي الأمر إلى مظهر اسم «الله»؛ فيشاهد في أخيرة سفره الأوّل الحقّ بجميع شؤونه ظاهراً؛ ولا يشغله شأن عن شأن، ويشاهده في أخيرة سفره الثاني باستهلاك جميع الحقائق في الاسم الجامع الإلهيّ؛ بل باستهلاكه -أيضاً- في الأحديّة المحضة، فهو يرجع إلى الخلق بوجود جامع إلهيّ، وله النبوة الأزليّة الأبدية والخلافة الظاهريّة والباطنيّة»⁽¹⁾.

ومن ثمّ يقول الإمام قُدِّسَ سَمِيُّهُ إنّ هذه الأسفار، وحتّى السفر الرابع منها،

(1) انظر: الخميني، روح الله: مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام، 1372هـ-ش، ص 210.

تحصل كذلك لأولياء الله؛ كما حصل للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام. ولا شك في أن كل من كان أقرب إلى المعصومين عليهم السلام وأشبه بهم؛ فإنه سيتمتع بهذه الأسفار على قدر سعته الوجودية، ويحظى بجلوات الحق تعالى، وينال مرتبة التوحيد العلمي والعيني. إن كثيراً من السالكين ينالون توفيق الحضور في السفرين الأول والثاني؛ حسب قابليّاتهم، ولكنهم لا يكسبون نجاحاً كثيراً في السفرين الثالث والرابع⁽¹⁾.

لقد حاز الإمام قُدْرَتُهُ مرتبة السبق في هذا الميدان -أيضاً-، واستطاع أن يطوي المنزليين الثالث والرابع بأحسن الأشكال، واستطاع في سفره الرابع من الخلق إلى الخلق بالحق وهدايتهم أن ينجز هذا الأمر بأحسن الصور، ففتح أبواباً واسعة للراغبين في الاتجاهات المقدسة للحبّ العفيف والمحبة الإلهية، ووجه العواطف الإنسانية توجيهاً صحيحاً؛ لينقذهم من الحبّ الكاذب. وكان ذلك كله ببركة شوق الإمام قُدْرَتُهُ وحبّه وإشراقه القلبيّ، فانطبق عليه -بحق- هذان البيتان من الشعر:

إنّ العارف الذي أشرق بنور الحقّ

استقام العالم بنوره

إنّ آلامه وحرقته يثيران الخلق

فالجميع سيحملون بواسطته بيرق الحقّ

6. عدم التقيّد بمنازل العرفاء:

يعتقد العرفاء أنّ على السالك طيّ المنازل حسب الترتيب المذكور في العرفان العمليّ؛ حتّى ينال الشهود والحضور، وحقيقة التوحيد، وإنّ سلوكاً كهذا ضروريّ. وقد اعتبروا أنّ عدد هذه المنازل اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو سبعة، أو ألف منزل. وقد ذكر الخواجة عبد الله الأنصاريّ في كتابه «منازل

(1) الخميني، مصباح الهداية، م.س، ص 210.

السائرين» مئة منزل منها. وهم يعتقدون أن اجتياز هذه المنازل يجب أن يتم حسب الترتيب؛ إذ من غير اجتياز المنزل السابق لا يمكن الدخول في المنزل اللاحق، ولا شك في أن تفسيراً كهذا عن المنازل سوف يقطع الطريق أمام كثير من السالكين للوصول إلى الله تعالى؛ ليبقى -بالتالي- الباب مفتوحاً أمام عدد قليل من العرفاء في هذا الميدان. وأمّا الإمام قُدْرَتُهُ فقد فتح أبواب العروج والوصول للجميع، من كافة الشرائح والطبقات، ومن دون التقييد بالمنازل التي ذكرها العرفاء. فبدل ذلك الجو المغلق إلى فضاء رحب شامل للجميع، وبعبارة أخرى: إن عرفان الإمام قُدْرَتُهُ كان عرفاناً خالصاً شاملاً جامعاً بعيداً عن التكلف.

لقد اعتبر الإمام قُدْرَتُهُ أن تعدد هذه المنازل من المسلمات عند العرفاء، حيث يقول: «اعلم أن للإنسان مقامات ومدارج. وقد اعتبره بعضهم صاحب مقامين؛ أحدهما: مقام الدنيا والشهادة، والثاني: مقام الآخرة والغيب. أحدهما: ظلّ الرحمن، والآخر: ظلّ الرحيم. وعلى ذلك؛ فإنّ مَنْ يكون في ظلّ الأسماء ومربوبها هو ذو الظلّ، والربّ هو في حيز اسمي الرحمن والرحيم، وقد جمع ذلك في الآية الشريفة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ويقول العرفاء: «ظهر الوجود بسم الله الرحمن الرحيم». ويمتدّ هذان المقامان في الإنسان الكامل، من ظهور المشيئة المطلقة، من مكامن الغيب الأحدي؛ وحتىّ مقبض الهيولى، أو مقبض الأرض السابعة التي هي حجاب الإنسانية؛ وذلك على طريقة العرفاء الشامخين... وعلى اعتبار آخر، فإنّ لديه ثلاثة مقامات؛ الأوّل: مقام الملك والدنيا، والثاني: مقام البرزخ، والثالث: مقام العقل والآخر... وقد ذكر بعضهم له أربعة مقامات: الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت. وقد ذكر آخرون خمسة مقامات: الشهادة المطلقة، والغيب المطلق، والشهادة المضافة، والغيب المضاف، ومقام الكون الجامع. وقد ذكرت سبعة مقامات؛ وهي المعروفة بمدن العشق السبع... وعلى اعتبار

تفصيلي هناك مئة منزل، بل ألف منزل... وكذلك، فإن الصلاة التي تمتاز بميزة الشمولية، وكونها عمود الدين، قد ذكروا لها المقامات نفسها؛ إذ إن الصلاة تشتمل على جميع المقامات المعنوية الإنسانية؛ بحسب سفره المعنوي من منتهى النزول في عالم الملك الذي هو بيت النفس المظلم، وحتى الغاية القصوى للمعراج الحقيقي الروحاني الذي هو الوصول إلى الفناء في الله»⁽¹⁾.

ومما تقدّم، يمكن أن نستنتج أربعة أمور؛ هي:

- أن المقامات والمنازل ضرورية للسالك.
- أن دائرة سير السالك تمتد من ظل اسم الرحمن؛ حتى ظل اسم الرحيم.
- أن تقسيم المقامات والمنازل إلى المئة أو الألف أمرٌ وضعي، وأن لكل واحد من أهل السلوك مقامه الخاص.
- أن الصلاة تحوز جميع هذه المقامات من بين العباد، وهي سلّم لعروج أهل المعرفة.

والنقطة الأهم والأساس في هذا المجال هي أن الإمام قَدَّسَ سَلَامُهُ؛ كسائر العارفين، يعتبر أن طي المنازل أمرٌ ضروري، ولكن الخلاف البين الموجود بين طريقة الإمام قَدَّسَ سَلَامُهُ وغيره من العرفاء هي في طي المنازل؛ فالعرفاء بعد أن حدّدوا هذه المنازل يلزمون أنفسهم والآخرين بطيهاً بالكامل. وأمّا الإمام قَدَّسَ سَلَامُهُ، فيعتبر أن شرط السلوك وطي المنازل والمقامات هو في مراعاة أحكام الشريعة، ولا يقبل بما يلزم به العارفون أنفسهم والآخرين، ولم يتقيّد بذلك المنهج؛ بل المهم في رأيه أن يجعل الإنسان الأحكام أساساً لرياضة النفس والسلوك؛ كما أبلغه أمين الوحي للناس، حتى ينال قلباً سليماً يعدّ في الواقع حقيقة التوحيد الفعلي والعملي.

(1) الخميني، سر الصلاة، م، ص، ص 19-20.

7. نزوع عرفان الإمام نحو المجتمع:

يعتقد كثير من العرفاء أنّ على العارف الاعتزال عن الحياة والانزواء عنها؛ ليتمكّن من هداية المجتمع، وليزوّد الناس بالمعارف الإلهية والشهوية. وكان كثيرٌ منهم يرون أنّ وجود العارفين في الساحة السياسية وإدارة شؤون المجتمع لا يتطابق مع منزلتهم، ولذلك كانوا يفضلون الانعزال حتّى نهاية العمر، على الحضور في المجتمع، بل كان بعضهم يعتبره أمراً ضرورياً.

وأما الإمام الخميني قده فهو لم يكن يعتبر الحضور في المجتمع، وبذل الجهد والوقت لتدبير شؤون الناس الدنيوية، منافياً للعرفان والسير والسلوك؛ بل كان يعتبره بحسب رؤيته الخاصة شرطاً أساساً وضرورياً؛ بل كان يرى أنّ العارف أكفأ الناس وأكثرهم قدرة على إصلاح أمور المجتمع البشري، وأنّ قبول المسؤوليات الاجتماعية ليس منافياً للعرفان والمقامات المعنوية؛ لأنّ العارف عندما يدخل في المسائل الحياتية والاجتماعية، وفي دنيا الناس ومشاكلهم وهمومهم وتطلّعاتهم، فهذا لا يعني أنّه أصبح من أهل الدنيا، وهو ليس منافياً للزهد فيها، فحقيقة الزهد لا تعني الهروب من الدنيا، بل تعني عدم التعلّق بها؛ ولذا، فعلى الرغم من احترام الإمام قده للعرفاء المسلمين، كان يشتكي من فصلهم بين العرفان والدنيا واعتزالهم لها. وكان يقول: «الإسلام غريب، كان غريباً منذ البدء، وهو الآن غريب، وهو غريب؛ لأنّهم لم يعرفوه، فهو في مجتمع لا يُعرف، وما عُرف الإسلام في وقت ما قط تلك المعرفة التي تجب. أليس بيننا من أخذوا أمراً، وتركوا الآخر، أو خالفوه. كنّا مبتلين بالمتصوفة مدّة طويلة، كان الإسلام مُبتلّى بالمتصوفة، فأولئك خدموه خدمة طيبة، إلّا أنّهم كانوا يردّون كلّ شيء إلى الجهة الأخرى، فكلّ آية تَرَدُّ بين أيديهم تذهب إلى ذاك الطرف؛ كتفسير عبد الرزاق، العالم الفاضل الذي ردّ القرآن لذاك الطرف؛ كأنّه لا علاقة له بهذه الأعمال.

وابتلينا مدّة بمجموعة أخرى ترفض المعنويّات كلّها، ولا تأخذ بها أصلاً؛ كأنّ الإسلام جاء لأخذ الدنيا»⁽¹⁾.

8. علاقة العرفان بالسياسة:

إنّ إحدى ميّزات العرفان عند الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هي في الربط بين العرفان والسياسة؛ ففي التاريخ الإسلاميّ لم يكن الحكم بيد الصالحين إلّا في عهد الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، وكذلك في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد رسّخ إبعاد القادة الإلهيين والنخبة الصالحة عن الحكومة تدريجياً في الأذهان أنّ السياسة والحكومة من عمل غير المتديّنين، وأنّ المتديّنين يتهرّبون منها. كما إنّ دعايات الحكومات الجائرة كان لها الدور الأكبر في ترسيخ هذا المفهوم أكثر فأكثر. وكان ثمة رأي مفاده أنّ عالم الدين المنشغل بالسياسة والعمل السياسيّ غير متديّن! وكادت هذه الفكرة أن تترسّخ عند المتديّنين ورجال الدين على حدّ قول الإمام الخميني عَلَيْهِ السَّلَامُ، فانطلق بنهضته المباركة في مثل هذه الأجواء المشحونة ضدّ العمل السياسيّ، ليؤسس لاحقاً حكومةً على أساس الدين، وليقوم؛ بصفته عالم دين، بإرشاد المجتمع وهدايته خلال عشر سنوات، وهو في رأس السلطة السياسيّة والحكومة. وبذلك، فقد أدخل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ العرفان في السياسة، واستطاع بهذا الأسلوب أن يربّي العارفين في جميع الشرائح والطبقات؛ ومنها: الميدان السياسيّ والحكومي، مع ما لهذا الميدان من علاقة وارتباط بحاجات الناس الحياتيّة والمعيشيّة.

9. العلاقة بين العرفان والجهاد:

تعدّ روح الحماسة والجهاد من الميّزات الأخرى للعرفاء الإلهيين؛ إذ يتحوّل العرفاء ليصبحوا مظهرًا للجهاد الإلهيّ في مواجهة الكفر والإلحاد

(1) الخميني، روح الله: صحيفة الإمام، ط1، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني عَلَيْهِ السَّلَامُ، 1430هـ/ق/ 2009م، ج8، ص390.

والنفاق؛ وذلك لأنهم وجَّهوا قوتهم الغضبية توجيهاً إلهياً، ولكونهم مرتبطين بالقدرة الإلهية والمبدأ الأزلي والأبدي، فلا يتملكهم خوف إطلاقاً، ولا يخافون في الله لومة لائم. إذ لا يرون لغير الله قدرة أصلاً، وهم نالوا مقام الشهود والحضور بهذا الاعتقاد، فيرون يد الله في كل مكان، وفوق كل الأيدي. وهذه النقطة هي رمز إدراك أجمل ساحة جهادية للعرفاء؛ وهي ساحة عاشوراء، التي تجلَّت فيها أجمل وأعمق صور الترابط واللحمة بين العرفان والجهاد. وهذا الاتّصال والترابط قد خلد هذه الحقيقة وهذه الواقعة في جميع الأعصار لتصبح أسوة لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل.

لقد آمن الإمام الخميني قُدِّسَ سَمُوهُ بهذه العَلقة والرابطة بين العرفان والجهاد، وكان يرى أنّ تكرار هذه المشاهد الحماسية التي حدثت في كربلاء هو أمر ممكن في كل زمان ومكان، وأنّ أول خطوة تكمن في الدخول في مشروع مواجهة الظلم والظالمين بالتوكّل الدائم على القدرة الإلهية.

10. مواجهة العرفان الكاذب:

خالف الإمام الخميني قُدِّسَ سَمُوهُ بشدّة أولئك الذين يستغلّون اتّجاهات الناس العرفانية ليفتحوا لأنفسهم دكّانة لعرض العرفان فيها. وكان يعتبر الذين يتظاهرون بالعرفان وهم ليسوا في طريق أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ويدعون الناس إلى أنفسهم بدل أن يدعوهم إلى الله تعالى، كان يعتبرهم في الحقيقة خارجين عن العرفان الحقيقي⁽¹⁾.

والسرّ في مخالفة الإمام قُدِّسَ سَمُوهُ للمتظاهرين بالعرفان يكمن في أنّهم يشجّعون الناس على الركود والخمود والانعزال، في حين أنّ مثل هذه الأفكار لا تؤدّي إلّا إلى القبول بالظلم وسيطرة الطاغوت، وبالتالي الخروج من ولاية الله تعالى. فالعرفان عند الإمام الخميني قُدِّسَ سَمُوهُ لا ينسجم إطلاقاً

(1) انظر: الخميني، روح الله: ديوان الإمام، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام، 372 هـ-ش، ص 217.

مع الادعاء والتظاهر. فلا حاجة فيه لأدوات؛ مثل: القبعة، وغيرها من الأدوات الخاصة ببعض الصوفيّة. فالعرفان يجري في ساحة الحياة، ولا يرتبط بمثل هذه الأمور؛ لأنّ حقيقته هي أن لا يرى العارف نفسه، بل يرى الله -تعالى- دومًا.

يقول الإمام في إحدى قصائده:

«إنك ترفع صوتك من على المشنقة بقولة أنا الحقّ
أيها الدعيّ الذي يدعي طلب الحقّ هل نسيت إنّي وإنّا
إذا كنت صوفيًّا صافيًّا فاخلع هذا الصوف
لم تتحدّث عن نفسك رافعًا صوتك بذلك؟»⁽¹⁾

لقد كان الإمام قُدِّسَ سرُّه في صراعه ضدّ العرفان السلبيّ الهدّام، يقوم بنشر العرفان الأصيل الجهادي، حيث كان يشجّع قوَّات التعبئة ومقاتلي الإسلام في بعض نداءاته الموجهة إليهم: «إنّ هذا النصر المعنويّ والمادّي رهن إسلاميّة الثورة وشعبيّتها والتفاف الجماهير حول الإسلام، والتحوّل العظيم والمعجز الذي أوجده الله -تعالى- لدى هذا الشعب، بما في ذلك هؤلاء الشباب الأعرّاء في مختلف أنحاء البلاد، الذين تركوا وراءهم -في تحرك معنويّ وروحيّ سريع وخاطف بفضل اليد الإلهيّة الحقّة- المستنقع الذي أوجدوه لهم بأيدي الاستكبار العالميّ الخبيث الذي برز من أكمامه؛ أمثال: رضا خان، ومحمد رضا، وغيرهم من عبید الغرب والشرق، وتمّ إنقاذهم وتمكينهم من طيّ طريق يستغرق مئة عام في ليلة واحدة، واستطاعوا أن يحققوا دفعة واحدة ما كان يحلم به العرفاء والشعراء العارفون خلال سنوات طويلة، وترجموا عشق لقاء الله من مرحلة الشعار إلى العمل، وحققوا أمنيّتهم في الشهادة من خلال سلوكهم في جبهات الدفاع عن الإسلام العزيز. إنّ مثل هذا التحوّل الروحيّ العظيم بهذه السرعة غير المسبوقة،

(1) الخميني، ديوان الإمام، م.س، ص94.

لا يمكن تحقّقه من دون عناية الخالق الرؤوف المرّبي للعشاق»⁽¹⁾.
وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام قُدَّسَ سِرُّهُ، على الرغم من مخالفته لمنهج بعض المتلبّسين بلباس العرفان الكاذب؛ كان يخالف الذين يعيبون على أهل الحقّ ولا يقبلون بمنهج العرفان الأصيل والعارفين بحقّ بالله تعالى؛ لأنّ العرفاء الحقيقيّين يُظهرون للناس طريقة صحوة القلب، ويمهّدون الطريق للحضور في عالم المعنى، وإدراك الفيض الإلهيّ. ولذلك، كان الإمام قُدَّسَ سِرُّهُ يذمّ أفكار بعضهم ممّن يعترض على طريق المعرفة والعرفان، ويقول لمن يعيبونهم:

«إذا لم تكنْ أهلاً فلا تدمنْ أهل الحقّ
أيها الميت لا تحسب أصحاب القلوب الحيّة أموات مثلك
أيها المهجور أفق من هذا النوم الثقيل
يا أصحاب القلوب الحيّة لا تلقوا الستار على النوم الثقيل»⁽²⁾

11. النظر إلى العرفان بوصفه أداة:

ينظر كثيرٌ من العلماء إلى علومهم فقط، ولا يقيمون وزناً للعلوم الأخرى. أو تجدهم لا ينظرون إلى العلم على أنّه وسيلة وأداة؛ بل يعتبرون العلم بحدّ ذاته غايةً وهدفاً. والإمام الخمينيّ قُدَّسَ سِرُّهُ كان يعتقد أنّ كلّ علم يُنظر إليه على أنّه هدف بنفسه، سوف يحرف الإنسان عن هدفه الحقيقيّ من الحياة، ومن الممكن أنّ يقوده هذا التوجّه والجهل إلى الوقوع في نار جهنّم؛ حتّى لو كان هذا العلم علم التوحيد والعرفان. يقول قُدَّسَ سِرُّهُ: «قد يؤدّي علم التوحيد، أو العرفان، أو الفقه، أو الأخلاق، بالإنسان إلى جهنّم أحياناً، فالعلم وحده ليس كافياً، ولا بدّ من التزكية»⁽³⁾.
وقد ذكر ابن سينا موضوعاً عميقاً في تعلّم العرفان، حيث يقول: «مَنْ

(1) الخمينيّ، صحيفة الإمام، م.س، ج17، ص243.

(2) الخمينيّ، ديوان الإمام، م.س، ص216.

(3) الخمينيّ، الكلمات القصار، م.س، ص67.

أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني. ومن وجد العرفان كأنه لا يجده، بل يجد المعروف به، فقد خاض لجة الوصول⁽¹⁾. وهذا لا ينسجم مع الهدف الذي يسعى إليه العارف؛ وهو الفناء والتوحيد.

إن كون أي علم وسيلةً وأداةً قد يشتد أو يضعف؛ حسب العلم نفسه، ومن هذه الناحية يجب احترام الجميع، فعلم الفقه -مثلاً- يؤمن بعضاً من حاجات الإنسان، وينقذه من الحيرة في كيفية أداء العمل، ولذلك يجب إعطاؤه الأهمية التي يستحقها، شرط أن لا يتصور أحد أن العلم محصور في الفقه فقط.

وكذلك بالنسبة إلى العلوم الأخرى؛ كالأخلاق، والعرفان، والفلسفة، وغيرها من العلوم، لا بد من إيلائها أهمية تتناسب مع دورها في سمو الإنسان الروحي والمعنوي والمعرفي. والإمام قده كان دائماً ما ينبه إلى هذه المسألة ويحذر منها، على اعتبار أن لو تحول العلم عن كونه وسيلة وأصبح هدفاً ومطلوباً بحد ذاته، فإنه سيتحول إلى حجاب. وقد أشار في قالب شعري إلى ضرورة تجنب حجاب العلم، وخاصة الفلسفة، إلى بعض أقاربه، حيث يقول:

«فاطمة يا من تفتخرين بعلم الفلسفة

وتهاجمين العلوم الأخرى بكل جهر

إنني خائف عليها من الغفلة

في هذا الحجاب الأكبر بأن تخسر حياتها»⁽²⁾

فأينما كان الله حاضرًا كان النور موجودًا، وأينما كانت الغفلة كانت الظلمة حتى إذا كان صف درس التوحيد.

(1) ابن سينا، أبو علي: الإشارات والتنبيهات، شرح: نصير الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، ط3، القاهرة، دار المعارف، القسم الرابع، النمط التاسع، الفصل العشرون، ص99.

(2) الخميني، ديوان الإمام، م، س، ص205.

«فاطمة التي تقرأ الآن الفلسفة
لا تعرف من الفلسفة إلا الفاء واللام والسين
إنني آمل أن تتمكن بنور الله
من أن تنقذ نفسها من حجاب الفلسفة»⁽³⁾
ويقول في موضع آخر:

«يا إلهي افتح فصلاً يصف وجهك
ويبدأ طرتك الجميلة
لا بد من وضع العلوم الفلسفية جانباً
يا رب انظر إلينا حتى تكون وجهتنا إليك»⁽⁴⁾

خاتمة:

إنَّ الجاذبيَّة العرفانيَّة هي إحدى النزعات والاتِّجاهات الفطريَّة المقدَّسة في الإنسان، التي لا يمكن تجاهلها أو التساهل إزاءها. وقد تضاعفت هذه النزعة في عالم ما بعد الحداثة اليوم. ويمكن القول: إنَّ العرفاء السابقين قد أشاروا إلى طرق تلبية نداءات هذه التوجُّهات الإنسانيَّة، إلا أنَّ محاولاتهم كانت تتَّسم دائماً بالنقص والضعف للذين لا يمكن التغاضي عنهما. كما تسبَّب بعض المتظاهرين بالعرفان اليوم بدفع الناس نحو الأخطاء والمشاكل السلوكيَّة والمعرفيَّة. فما أكثر الذين دخلوا في هذا الوادي متعطِّشين للمعنويَّات، ولكنَّهم هلكوا فيه أو احتاروا في النهاية؛ بسبب فساد المنهج المتَّبَع.

أمَّا الإمام الخمينيُّ قُدِّسَتْ سِرُّهُ فهو يُعَدُّ -بحقِّ- مجدِّداً للإسلام المحمَّدي الأصيل، حيث أزال بتعاليمه السامية الشبهات النظرية والعملية عن العرفان؛ بالرجوع إلى معارف مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. كما إنَّه أحيَا

(3) الخميني، ديوان الإمام، م.س، ص209.

(4) م.ن، ص205.

العرفان الإسلاميّ الأصيل، وجلب قلوب الكثيرين نحو الحقيقة؛ بعرضه لعرفان خالصٍ صافٍ، يربّي من خلال هذا العرفان رجالاً ونساءً كانوا مستعدّين للتضحية بجميع ما يملكون.

ومجتمعنا البشريّ اليوم هو أحوج ما يكون إلى هذا العرفان الأصيل الذي أحياه وأعاد له روحه السيّد الراحل العارف بالطريق روح الله الموسويّ الخمينيّ قده؛ فتعريف الشباب الباحث على حقيقة علم العرفان، وبالخصوص عرفان الإمام الخمينيّ قده، لهو خطوة أساس وضروريّة في طريق تحقيق الحضارة الإسلاميّة الكبرى، وتعريف العالم بالله العزيز، والله رؤوف بالعباد.